

مركز تكامل للدراسات والابحاث

دراسات محكمة

العالم بعد فيروس كورونا: تأملات واحتمالات

علي الإدريسي

مؤرخ مهتم بالعلاقات الدولية
المغرب/كندا

All rights
reserved



جميع الحقوق
محفوظة

مركز تكامل للدراسات و الأبحاث
TAKAMUL centre for Interdisciplinary Research and Studies

ارتأيت في هذه المقالة، النظر في الوضع المحتمل للنظام السياسي الدولي انطلاقاً من أزمة جائحة كورونا، بصفتها أزمة عالمية كبرى، لا تختلف مخلفاتها عن أزمات تاريخية، في عالمنا المعاصر، التي كان لها انعكاس كبير على تشكيل محددات نظام العالم السياسي والاقتصادي خلال قرن من الزمن ونيف، وبعد أن أمسى ذلك النظام يعاني من هيمنة، أو عودة، الأيديولوجيات القومية المتطرفة إلى ساحة دول كبرى مؤثرة على النظام العالمي؛ لتوجه العلاقات الدولية توجيهها يختلف عن قواعد التوافقات التي سادت العلاقات الدولية في مرحلة الحرب الباردة إلى حد ما. فهل أضحى النظام الدولي القديم، بجميع هيئاته وآلياته، الناتج عن وضع العالم لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكذا خَلَفُه النظام العالمي الجديد، الناشئ عن انهيار الاتحاد السوفياتي في 1990، يتطلب تغييراً أو تجديدًا آخر؟

سيكون التركيز بشكل أساسي على ما يشير إلى احتمال ظهور نظام عالمي جديد، بناء على إرهابات وتلميحات حبلت بها الخطابات السياسية والإعلامية الحالية، حول تبدل التوازنات الدولية بصعود دول أخرى إلى مراتب متقدمة، وتحول أخرى إلى أحوال سياسية يمكن وصفها بالانغلاق على الذات القومية؛ وقد ساهمت جائحة كورونا وطرائق مواجهتها من قبل الدول، التي كان يُعتقد فيها القدرة على هزمها بسهولة، في التفكير والبحث عن نظام دولي جديد أكثر فاعلية، وأكثر توافقية ربما.

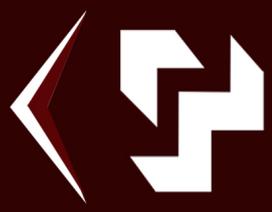
ونعتقد بأن هندسة قيادة العالم تتطلب، في الأغلب، خططا لشق ما يشبه أنفاقاً إلى شاطئ التفاهات بكلفة أقل، وسط كثير من الجدل السياسي، والصراع على النفوذ الاقتصادي، والتسابق على التفوق العلمي والتكنولوجي، ووسط الضوضاء الإعلامي بين الفرقاء، بهدف إخفاء أسرار خطط المستقبل والغاية منها. وكمثال على ذلك، في نظرنا، هذا الفيض من الأخبار المتضاربة المتداولة، والآراء المتباينة، والتحليلات المتعكسة، والتعليقات المتعارضة بشأن الخلخلة التي عاشها ويعيشها عالمنا في كل مجالاته المناخية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية. أما جائحة كورونا فغالبا ما نُظر، ويُنظر، إليها كالقشة التي قصمت ظهر البعير، التي ستُسرع وتُعجّل بتجاوز الوضع الحالي للنظام السياسي الدولي.

ومن هنا فإن السؤال المحوري للمقالة هو: ما هي صورة النظام العالمي المحتملة لمرحلة ما بعد الجائحة، ومن هم راسموها، ومن هم الشركاء في صوغها، ومن هم فرقاؤها؛ ومن هم بُنائها ومكوناتها؟ وهل من الضروري أن يتغير النظام الدولي القائم، أم أن الأمر لا يتطلب أكثر من الإصلاح؟

الفقرة الأولى: مرجعية الأنظمة العالمية في القرن العشرين

قبل النظر فيما يطرحه السؤال السابق وتفرعاته يجدر بنا أن نتذكر بعجالة صورة أنظمة عالمنا الراهن، خلال مائة عام من الزمن، أي منذ الحرب العالمية الأولى 1914 - 1918 إلى الآن؛ لأننا نعتقد جازمين بأن فهم وقائع التاريخ يساعدنا، ولو بشكل نسبي، على توقع وجهة الغد المنتظر، واتجاه بوصلته في أوج يمّ العلاقات الدولية المتلاطمة.

نعرف اليوم أن أولى انعكاسات الحرب العالمية الأولى، قيام الثورة البلشفية في روسيا، أي التمهيد لانقسام أوروبا إلى معسكرين: معسكر شيوعي في شرقها، ومعسكر رأسمالي في غربها، كمنطلق لتجاوز قيادة الدولتين الاستعماريتين، إنكلترا وفرنسا، لعالم ما قبل الحرب العالمية الأولى. ونعرف كذلك أن الولايات المتحدة بدأت تهتم اهتمامها سياسياً أكبر بأحداث العالم السياسية ومصيرها، منذ حضورها القوي في مؤتمر فيرساي 1919. وبذلك أضحت أوروبا وأمريكا تتحركان تحت عنوان مشترك هو "الغرب"، وأصبحتا طرفاً مهماً في قيادة العالم. خاصة بعد الانهيار النهائي سنة 1924 للإمبراطورية التركية، الموصوفة بالخلافة الإسلامية العثمانية. ومن ثمة بدأت ملامح النظام العالمي الجديد تتضح تدريجياً أمام جميع العالم، بثنائية قطبيه: المعسكر الرأسمالي



الداعي إلى الديمقراطية السياسية والاقتصاد الحر، والمعسكر الشيوعي أو الاشتراكي الداعي إلى الديمقراطية الاجتماعية أو دكتاتورية البروليتاريا والاقتصاد الموجه.

ومن جهة أخرى، أدى احتكار فرنسا وإنكلترا للربح الاستعماري، يومذاك، إلى ظهور ردة فعل انتقامية أوروبية، تمثلت في تفشي النزعة الفاشية في إيطاليا، وتنامي النازية في ألمانيا، وحدث الكساد الاقتصادي، منذ سنة 1929. وشكلت تلك الوقائع أزمة عالمية، وبالتالي مدخلا لتأسيس نظام سياسي دولي جديد؛ وعجلت الحرب العالمية الثانية (39 - 1945) بزحزة النظام الدولي الذي كان. وأنزلت إنكلترا وفرنسا من على كرسي القيادة، وتحويله إلى الولايات المتحدة باسم الغرب وحلف شمال الأطلسي، وإلى الاتحاد السوفياتي (روسيا) زعيمة أوروبا الشرقية وحلف وارسو. وتم إلغاء المنظمات الدولية التي كانت قبل الحرب الثانية، وتأسيس هيئات جديدة، في مقدمها هيئة الأمم المتحدة

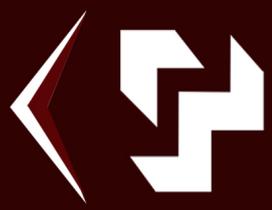
بدأ القطبان الجديان للعالم، بإظهار تفوقهما العسكري، وبخاصة في مجال التسليح النووي والهيدروجيني، وغزو الفضاء، بل أظهرتا تفوقهما حتى في جني الميداليات الرياضية، وتطوّر تنافسهما في مختلف المجالات، وتأجّج صراعهما الذي أدى إلى ما أطلق عليه "الحرب الباردة". فجنّد كل قطب مناصريه بشعار أمريكي "من ليس معنا فهو ضدنا"، وبشعار روسي - سوفياتي "من ليس ضدنا فهو معنا"، كما هو معروف.

تأكد انقسام العالم بتقسيم ألمانيا بين المعسكرين المنتصرين، قبل أن يترسخ بتقسيم عاصمتها برلين ببناء جدار فاصل، سنة 1961، بين دولتين ألمانيتين: دولة ألمانيا الديمقراطية تابعة لمعسكر وارسو الشيوعي بقيادة موسكو، ودولة ألمانيا الغربية تابعة لمعسكر حلف شمال الأطلسي بقيادة واشنطن.

دامت هذه القيادة الثنائية القطبية بحرها الباردة، وبمناهجها الاستقطابية لدول العالم الثالث ودول عدم الانحياز، أو ما كان يعرف بالدول السائرة في طريق النمو، حتى سقوط الجدار المقيّم لبرلين الألمانية بين المعسكرين سنة 1989؛ ثم انهيار الاتحاد السوفياتي نفسه سنة 1990، بسبب عدم استطاعة دول معسكر وارسو من تحقيق التطور الاقتصادي والمعيشي لشعبه، تنفيذاً للوعود المعلنة من قبل أنظمتها، التي عملت على خنق الحريات، وقمع المختلفين معها في الرأي والرؤية. في الوقت الذي استطاعت فيه الولايات المتحدة أن تقدم نفسها كنموذج يقتدى به، لتحقيق التقدم والرفاه والحرية ليس لمواطنيها وساكنيها فقط، بل لكل من يتوق إلى الانعتاق من بطش الاستبداد والدكتاتورية في مفهومهما الواسع. ومن نتائج الانهيار كذلك تفكك حلف وارسو، واستقلال 15 دولة، كانت ضمن ممتلكات روسيا السوفياتية.

لكن النظام الدولي بدأ، بعد ذلك، أشبه بطائرة ضخمة تحاول أن تطير بجناح واحد، عكس ما عرفته الإنسانية من ثنائية ثقافية وسياسية، منذ قرون طويلة. وأضحى العالم مهدداً تهديداً حقيقياً بالعبثية التدييرية، وبالفضى السياسية، وباختلال المرجعيات والتوازنات التي بناها نظام القطبين المنهار. ونعتقد بأن أمريكا تفتنت عملياً، في خريف 1991 إلى ما يجابهه النظام العالمي من تحديات وصعوبات، فأعلن رئيسها جورج بوش الأب العولمة، مقترحاً إيها كملاد ومنقذ من سقوط الجميع في عبثية الأهواء السياسية، ووعده بأن العولمة هي من سيجنب انهيار توافقات المجتمع الدولي ومنظّماته وهيئاته.

تجاوب الكثير وتفاعل مع الدعوة الأمريكية للعولمة طوعاً أو كرهاً. واعتُبرت الديمقراطية السياسية من أهم مظاهر تلك العولمة. ولذلك تحولت أكثر من 80 دولة إضافية إلى شكل من أشكال النظام الديمقراطي السياسي خلال عشر سنوات فقط، بعد أن كان عددها قبل انهيار معسكر حلف وارسو لا يتجاوز 40 دولة؛ وفقاً لما نشره الصندوق الوطني الأمريكي للديمقراطية (NED) في ذكراه العشرين سنة 2003.



الفقرة الثانية: من العولمة إلى الأيديولوجية القومية

على الرغم من الانتقادات الموجهة من قبل مفكرين، وخبراء في العلاقات الدولية، ومنظرين اشتراكيين بصفة خاصة، إلى العولمة وأليتها الممثلة في "الليبرالية الجديدة"، الموسومة بالمتوحشة، فإن جهات كثيرة لم تكن تنتظر أن تأتي الضربة الأكثر زعزعة لنظام العولمة من مصدرها الأول، أي أمريكا نفسها بزعامة الرئيس دونالد ترامب، المتشبع بالأيديولوجية اليمينية الأمريكي المتشدد، أو عقيدة القومية الأمريكية الجديدة، التي يحلو للرئيس ترامب أن يردد شعارها باستمرار "أمريكا أولاً"، دون أن يوضح ما إذا كان هنالك رابط بين شعار أمريكا أولاً والعولمة؛ وهل يعني ذلك التخلي عن العولمة، أو تحويل مفهومها إلى "أمريكا هي العالم والعالم هو أمريكا"! خاصة عندما أعلن الرئيس ترامب بدون تردد أنه سيصحح أخطاء رؤساء أمريكا السابقين الذين تخلوا عن رسالتها.

ويظهر أن شعار أمريكا أولاً يتعارض إلى درجة التناقض مع ما كان يروج في سياسة أمريكا الخارجية، من كون تدخل الولايات المتحدة في النظام العالمي وممارسة نفوذها في أحداث مختلفة، لا يمثل "أي دافع من المصلحة القومية"¹. لكن، وعلى الرغم من هذه العبارة، فإن أمريكا اعتادت أن تعتبر "مبادئها الداخلية عالمية بالبدئية"².

ورب سائل عن علاقة هذا الاعتقاد الأمريكي بعالمية مبادئها، وإعلان الرئيس ترامب أنه هو من سيعيد لأمريكا عظمتها، وتصحيح أخطاء من تخلوا عن عظمتها وعن الإنجيل؟ خاصة أنه لم يتردد في القول "أنا الشخص المختار" المؤهل للقيام بهذه المهمة التاريخية. ولتأكيد ارتباط القومية الأمريكية بالإنجيل (الكتاب المقدس)، أصر على أن يظهر أمام كنيسة القديس يوحنا بواشنطن رافعا الإنجيل، كاشفاً، في الوقت نفسه، عن عقيدته القومية والدينية في لحظة تجددت فيها موجات الأمريكيين للعنصرية في دولتهم.

ويبدو أنه لجأ إلى ذلك في تحد واضح لمعارضيه من جميع الاتجاهات السياسية والثقافية، ولناهضي التمييز العنصري في أمريكا بصفة خاصة. ويمكن أن تكون كذلك بمثابة دعوة مبطنة للمحافظين والإنجيليين للتصويت له في رئاسيات نونبر 2020 إلى جانب القوميون الجدد، لكي يكمل مشروعه القومي الأمريكي.

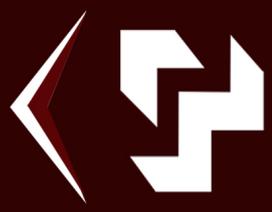
هذه صورة موجزة جداً، أشبه بيانوراما، عن التحولات والتطورات التي عرفها النظام العالمي، خلال ما يزيد عن 100 عام. فلننظر الآن إلى ما يحيل إليه السؤال المطروح في مدخل هذه المساهمة وتفرعاته أيضاً. وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: احتمالات قيام نظام عالمي جديد بعد الجائحة

يمكن القول منذ البداية: إن النظام العالمي لمرحلة ما بعد العولمة وأزمة الجائحة قد يكون ضروري الانبثاق والوجود، بعد الأحداث التي عرفها العالم، والمتوجة بعجز العولمة عن مواجهة مستجدات كثيرة، منها جائحة كورونا كمشكلة صحية مركبة، مست سلباً كل مناحي الحياة الإنسانية، وطرحت أسئلة جادة عن مدى فاعلية العولمة في مواجهة أزمات العالم. وتجاوزت تلك الأسئلة ما حاول البعض أن يشغل به الرأي العام العالمي بمطارات تتعلق بمن يتحمل مسؤولية اجتياحها للعالم، بدلاً عن عدم قدرة النظام العالمي الجديد (العولمة) على هزمها في أسرع وقت وبأقل خسارة وتكلفة. الأمر الذي أدى إلى تعميق الخلل، أو الشرخ الكبير، الحاصل في العلاقات الدولية. مما نجم عنه تقهقر اقتصادي خطير، وفقدان الشغل الضامن للعيش الكريم لمئات الملايين، وربما يتطور ليشمل ملايين البشر، كما نجمت عنه أزمات سياسية واجتماعية وثقافية، قد تزيد من تدهور العلاقات بين الدول بسبب ضعف الملاذ الذي أعلن عنه الرئيس بوش في خريف 1991، بل بتأكيد قلة فاعلية العولمة كنظام دولي توافقي وفاعل. لأن أمريكا التي كانت ترى أن "النظام الدولي يقوى بانتشار الليبرالية الديمقراطية"، وأن الولايات المتحدة "لا يمكن أن تتخلى عن هذه

¹ هنري كيسنجر، النظام العالمي أفكار حول طبيعة الأمم ومسار التاريخ، ترجمة وعرض أشرف راضي، منشورات كنوز، القاهرة طبعة 2015، ص 189

² المرجع نفسه والصفحة.



المبادئ³ أصبحت تهتم بمصلحة أمريكا أولاً وقبل كل شيء، وأضحى رئيسها ممثلاً للإنجيليين واليمين الأمريكي المتطرف دون غيرهم؛ وحتى بالنسبة لجائحة كورونا أمست أمريكا القومية أكثر الدول تعرضاً لها وخسارة بانتشار الفيروس انتشاراً واسعاً بين صفوف شعبيها، على الرغم من إعلان الرئيس ترامب، في البداية، أن موضوع الفيروس تحت السيطرة.

ونعتقد بأن العالم لن يتعافى من آثار الجائحة، ومن تداعياتها، وتجاوز التلاسن الإعلامي بشأن من يتحمل مسؤولية انتشارها كذلك، إلا بوجود نظام عالمي تختلف مكوناته، وبنياته، وآلياته، وأبعاده عن النظام العالمي القائم أو السابق. ونتساءل: هل الباب الذي قد يساعد العالم على الولوج إلى نظام عالمي محتمل يساهم في إيجاد منافذ وحلول لهزم جائحة كورونا ازدادت مزالجه في غلقه؟ لكن، ألم يكن فيروس كورونا منتظراً ومعروفاً؟

الواقع، إن الحديث عن فيروس كورونا الخطير على الحياة البشرية سبق الجائحة الحالية؛ فمثلاً في سنة 2014 نشر دافيد كوامن David Qwammne، وهو كاتب علمي، كتاباً ذكر فيه أنواعاً من الفيروسات المهددة لحياة الإنسان؛ منها فيروس كورونا⁴. وفي الاتجاه نفسه نشرت مجلة Nature Medicine الأمريكية، من جانبها، في أحد أعدادها سنة 2015 ما يفيد أنّ علماء في الولايات المتحدة تمكنوا من الحصول على نوع جديد من فيروس كورونا له تأثير خطير على حياة الإنسان. قبل أن تظهر مزاعم تشير إلى قيام المختبرات الأمريكية في أفغانستان، ومختبرات المخبرات الأمريكية في جورجيا بتصنيعه، وفقاً لما تم نشره في وسائل إعلام متعددة قبل كل ما قيل بشأن مصدره الصيني.

ويظهر مما تقدم أن فيروس كورونا كان متداولاً كفيروس خطير، ومعروفاً في دوائر خاصة، فهل يوظف الآن، بعد الكوارث التي أحدثها، للبرهنة على أن العالم بحاجة إلى نظام عالمي أفضل مما هو كائن، وأنجح في تقديم حلول شافية للعالم كافة؟ وهل الجائحة سبب كاف لتحقيق ما يُراد تحقيقه؟ أم أن النظام الدولي القائم حالياً فقد توازنه أصلاً، لأن آلياته الكثيرة تعود إلى أواخر النصف الأول من القرن العشرين. وقد تكون ترقيعات العوالة مجرد وسيلة لتبرير هيمنة اقتصاد أمريكا على العالم، وتقوية شريانه المسجد في الدولار؟

ثانياً: مهمات وعوامل قيام نظام دولي جديد

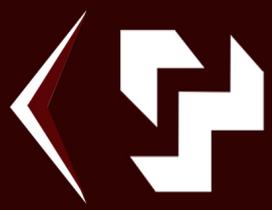
من المعلوم أن أمريكا كانت ولا تزال تتحكم تحكما شبيهة شاملاً في قرارات مجلس الأمن الدولي، ولم تترك لباقي الدول، وخاصة تلك التي لا تملك حق النقض، إلا منصات الخطابة في الجمعية العامة، أو في هيئات أممية أخرى، وهي منصات شبيهة بمنصات سوق عكاظ القرشية القديمة، أو منصات هايد بارك المعاصرة في لندن، للتباري بعبارات بلاغية، وبلغة الدبلوماسية القابلة لكل التأويلات الجدالية.

ونلاحظ أن التوجه الأمريكي انتقل في الواقع إلى مستوى أعلى، من أجل إحكام هيمنته الكاملة على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. وأضحى الولايات المتحدة تتصرف بدون حسيب، لأنها تعتقد بأنها الدولة "الأكثر حرية على فعل ما يروق لها، واثقة بأن صورتها لن تصاب بسوء"⁵، حسب تعبير نعوم تشومسكي. وترسخ ذلك الاعتقاد عند اليمين الأمريكي، وعند الرئيس ترامب،

³ المرجع السابق، ص 183.

⁴ دافيد كوامن، كاتب علمي، Spillover, Animal Infection and the Next Human Pandemic. العدوى الحيوانية والوباء البشري القادم، ترجمة مؤسسة "عالم المعرفة" الكويت طبعة 2014.

⁵ نعوم تشومسكي، النظام العالمي والجديد، ترجمة عاطف معتمد عبد الحميد، منشورات نهضة مصر، القاهرة طبعة 2007 ص 333.



بصفة خاصة، منذ وصوله إلى البيت الأبيض في 20 يناير 2017. وهل تعكس سياسة أمريكا الجديدة نحو الاتفاقيات الدولية والمنظمات والهيئات العالمية وآلياتها التي أوجدها النظام العالمي القديم والجديد جزءا مهما من ذلك الانتقال؟

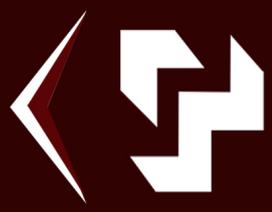
مما لا شك فيه أن الخلل الذي أصابت النظام العالمي القائم، إلى درجة فقدان توازنه، يمكن تشبيهه بطائرة عملاقة تحاول أن تطير بجناح واحد، ولذلك بدأت تتشكل قناعات بوجوب استبداله. ومن مظاهر تلك القناعات مواقف أمريكا نفسها، المتمثلة في قرارات الخروج والانسحاب من منظمات وهيئات أوجدها النظام الدولي القديم والحالي. فقد أعلن الرئيس ترامب عن سلسلة انسحابات بلاده من منظمات وهيئات واتفاقيات دولية. فبمجرد أن جلس ترامب على كرسي الرئيس في البيت الأبيض بواشنطن، سنة 2017، أعلن عن انسحاب بلاده من اتفاقية باريس حول المناخ الموقعة سنة 2015 من قبل 195 دولة، بدعوى تعارضها مع المصالح الاقتصادية لأمريكا، وانسحب كذلك من اتفاقية الشراكة الاقتصادية الاستراتيجية عبر المحيط الهادي، الموقعة من قبل 11 دولة وفي مقدمها أمريكا سنة 2015. وطلب ترامب بدء مفاوضات جديدة بشأن اتفاقية "نافتا" الموقعة سنة 1994 بين بلاده وكندا والمكسيك؛ وهدد بالانسحاب نهائيا من الاتفاقية إذا لم يتم إعادة التفاوض حولها. وانسحب كذلك من "الميثاق العالمي للهجرة"، أو إعلان نيويورك للاجئين والمهاجرين، الذي يضم 193 دولة؛ وقد أقرته المنظمة الدولية بالإجماع سنة 2016.

أما في سنة 2018 فقد انسحبت أمريكا من أهم منظمة ثقافية دولية، اليونسكو، على إثر قبول عضوية دولة فلسطين الكاملة في المنظمة. وأعلن الرئيس ترامب انسحاب بلاده من الاتفاق النووي، الموقع من قبل الولايات المتحدة، وروسيا، والصين، وفرنسا، وبريطانيا، وألمانيا مع إيران. (5 + 1)، والانسحاب من "مجلس حقوق الإنسان" التابع للأمم المتحدة، الكائن مقره في جنيف، الذي تأسس في 2006، وكانت الإدارة الأمريكية قد انضمت إليه في عهد الرئيس أوباما. وفي الوقت نفسه قرر الرئيس ترامب توقيف مساهمة إدارته في تمويل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا)، وهدد بالانسحاب من اتفاق 1994 الخاص بإنشاء منظمة التجارة العالمية في أواخر 1995.

وفي السياق نفسه قرر الرئيس ترامب في 15 - 4 - 2020 تعليق مساهمة بلاده المالية في ميزانية منظمة الصحة العالمية، قبل أن يعلن انسحابه نهائيا منها بعد ذلك بحوالي شهر، وفي 21 مايو من السنة نفسها أعلن انسحابه من اتفاقية "الأجواء المفتوحة"، الموقعة سنة 1992 من قبل 34 دولة. وآخر ما قرره إدارة ترامب (11 - 6 - 2020) هو معاقبة محكمة العدل الدولية، إذا قررت محاكمة الجرائم الحربية المرتكبة من قبل جنودها. ويطالب العقاب أفراد أسر العاملين في المحكمة، بمنعهم من دخول الأراضي الأمريكية. والبقية تأتي. وهكذا نرى أن خلل النظام الدولي القائم يتم أساسا من قبل أحد أهم مؤسسيه وبناته. لذا يحق لنا الاعتقاد بأن كل ما سبقت الإشارة إليه يمكن أن يتضمنه شعار ترامب الدائم "أمريكا أولا". ويعلم الجميع أن أي نظام يتعطل بتعطيل آلياته.

ويشعر كثير من الأمريكيين بأن شعار، أمريكا أولا، قد خلل قناعتهم بأن بلدهم كانت أكثر حضورا إيجابيا في العالم، يوم كانوا يعتقدون بأنه "لم توجد دولة في العالم لعبت دورا في تشكيل النظام العالمي المعاصر مثل الولايات المتحدة" حسب تعبير هنري كيسنجر⁶. ولعل الخوف من أثر زعزعة ثقة الأمريكيين في موقعهم كدولة تتمتع بثقة شعبيها، ورائدة في العالم، هو ما دعا توماس فريدمان، الكاتب الصحفي والسياسي الشهير، أن يكتب مقالا بجريدة "نيويورك تايمز"، (10-06-2020)، عبر فيه عن تخوفه من أن الولايات المتحدة الأمريكية تتجه نحو حرب أهلية ثقافية، لأن أمريكا لا يقودها أبراهام لينكولن، كما عبر عن مخاوفه على عدم قدرة الأمريكيين على تحقيق انتقال سلمي للسلطة، وإجراء انتخابات حرة ونزيهة في نوفمبر المقبل.

⁶ هنري كيسنجر، النظام العالمي ...، مرجع سابق، ص 189.



نحن، إذن، أمام احتمالين بالنسبة لأمريكا: فهي تتجه، في عهد ترامب، إما وفق أيديولوجية اليمين الأمريكي المتطرف والإنجيليين، نحو الهيمنة منفردة على العالم، وإما أنها ستتحرّك نحو نظام عالمي جديد مخالف لنظام العولمة الحالي، لكي تستعيد دورها المسؤول في قيادة العالم، وتتمكن بالتالي من استعادة مكانتها الريادية فيه، بعد عجزها، غير المنتظر، عن التحكم في الأزمة الناجمة عن جائحة كورونا.

وفي مقابل ذلك، من هي الدولة أو الدول المؤهلة لممارسة علاقات توازنية وندية مع أمريكا، وتتقاسم معها نوعاً من التوافق العالمي، لكون طائرة العالم لم ولن تستطيع أن تطير بجناح واحد؟ فهل يمكن أن تكون الصين قادرة على أن تكون الجناح الآخر لخلق توازن طائرة العالم؟

ثالثاً: مؤهلات الصين كجناح جديد في النظام الدولي؟

يعلم الجميع أن الصين خطت خطوات اقتصادية وعلمية وتكنولوجية عملاقة، خلال الثلاثين سنة الأخيرة، فقد انتقلت صادراتها الصناعية في العالم من 1% سنة 1980 إلى 9% سنة 2004 وأصبحت صادراتها الخارجية تمثل 27% من الناتج المحلي الإجمالي⁷. وفي سنة 2004 أضحت تحتل المركز الأول عالمياً في صادرات التجهيزات الإلكترونية⁸. وتُشغّل صناعتها 100 مليون عامل، ضعف الدول الصناعية السبع مجتمعة التي تشغل 53 مليون عامل فقط في الصناعة⁹. وهي قد تحولت، بالإضافة إلى ذلك إلى تنين dragon استثماري في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية. ولم تستطع أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية الاستغناء عن استثماراتها، أو مقاومة استقطاب شركاتها العملاقة، بل أن حضورها وصل القطب الشمالي المتجمد كما هو معروف. الأمر الذي بوأها صدارة في العالم، على الرغم من محاولة حصارها من قبل أمريكا والاتحاد الأوروبي.

بدأ الغرب، إذن، (أمريكا وحلفاؤها) يهتز بقوة من تأثير الزلزال الاقتصادي الصيني. ويبدو أن نبوءة الكاتب والسياسي الفرنسي ألان بيرفيتت Alain Peyrefitte، (1999+)، الذي عنون بها كتابه "العالم يهتز يوم تستيقظ الصين" (Quand la Chine s'éveillera .. le monde tremblera) قد تحققت¹⁰. ولم يقف الغرب من زلزال الصين الاقتصادي، وتطورها العلمي والتكنولوجي، مكتوف الحركة، إما بصفته دولا مستقلة، أو كمعسكر متضامن، أمام من يهدد مكانته في العالم؛ لذلك لجأ إلى توظيف كل شيء ضد الصين، بما في ذلك موضوع حقوق الإنسان؛ فالغرب، وفي مقدمه أمريكا، يرى أن أهم أسس النظام الدولي توجد في "الليبرالية الديمقراطية"، بتعبير كيسنجر¹¹. في حين أن الصين، كما يورد كيسنجر نفسه، ترى "أن المجتمع عليه ... أن يحقق تصوره لحقوق الإنسان من خلال العمل الدولي"، فهي ترفض إذن الرؤية الغربية لحقوق الإنسان¹². لكن الغرب لا يتوانى عن استغلال كل الثغرات، بما في ذلك إبداء الإدارة الأمريكية (يونيو 2020) تعاطفها وتضامنها مع مسلمي الإيغور في الصين!!! لأن مبدأ مكيافيلي Nicolas Machiavel (1527+) القائل: "الغاية تبرر الوسيلة" يبدو أنه صالح لكل الأزمان.

أما تصعيد الهجومات على الصين فقد تضاعفت منذ وصول دونالد ترامب إلى قيادة الإدارة الأمريكية بإعلانه عن رفع الرسوم والتعريفات الجمركية على صادرات الصين إلى الولايات المتحدة، ووضع عراقيل وصعوبات، لا بداية ولا نهاية لها، أمام

⁷ - فرانسواز لوموان، الاقتصاد الصيني، ترجمة صباح ممدوح كعدت، منشورات الهيئة السورية للكتاب، دمشق طبعة 2010، ص 96.

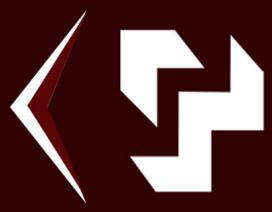
⁸ المرجع نفسه، ص 97.

⁹ المرجع نفسه، ص 7

¹⁰ صدر الكتاب سنة 1973.

¹¹ هنري كيسنجر، النظام الدولي ...، مرجع سابق، ص 183.

¹² المرجع نفسه والصفحة.



اقتصادها ليس في الغرب فقط وإنما في كل العالم، ويمكن تلخيص سياسة رئيس الولايات المتحدة نحو الصين بأنها حرب تجارية مفتوحة. وهكذا راح الرئيس ترامب، طيلة ثلاث سنوات ونصف السنة من حكمه، يتباهى بأنه الرئيس القادر على تخليص ليس أمريكا فقط من أخطاء رؤسائها السابقين، وإنما تخليصها من الأخطبوط الاقتصادي الصيني، وردد في ندوة صحافية، بتاريخ 22 غشت 2019، عبارة "اختارني الله لمواجهة الصين، وهذا قدرتي"، قبل أن يرفع رأسه ويديه إلى السماء ويقتبس عبارة توراتية "أنا الشخص المختار".

أما الصين فقد اتبعت منهج "فكر بهدوء واعمل بقوة تحقيق الأهداف" من خلال محاولاتها الدائمة الحصول على ثقة المتعاملين معها، واكتساب أسواق جديدة لها في كل القارات. ويورد تقرير لوكالة الأنباء الفرنسية أن الصادرات الصينية ارتفعت سنة 2013 إلى 137,9%، وفي سنة 2014 عنونت B B C NEWZ عربي مقالا لها بتاريخ 10 يناير "الصين قد تتخطى أمريكا كأكبر دولة تجارية". وسارعت، بالمنهج نفسه، أثناء اجتياح جائحة كورونا العالم، إلى تقديم المساعدات الطبية لأكثر من 80 دولة في العالم منذ أواخر شهر مارس 2020¹⁴. وكان التلفزيون الألماني (DW) قد نشر تقريرا في 24 مارس 2020 عن المساعدات الطبية تحت عنوان "هل تنجح الصين في تقديم نفسها كمنقذ؟" في الوقت الذي كان ترامب عاجزا عن مواجهة فيروس كورونا في بلده، وبدلا من ذلك راح يكيل التهم للصين ويحملها مسؤولية انتشار الفيروس القاتل.

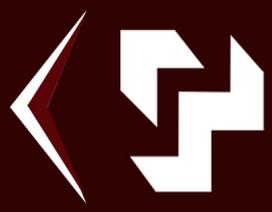
فإلى أين يقود الحضور الصيني في العالم، وغياب فاعلية السياسة الأمريكية داخليا وخارجيا لمواجهة التحديات المستجدة؟ هل يقودان إلى ميلاد نظام دولي توافقي جديد، أم إلى المواجهة بين أمريكا والصين كقدر محتوم للرئيس ترامب، كما عبر عن ذلك بنفسه في أكثر من مناسبة؟ وهل سيتوقف الأمر عند حدود التلاسن الدبلوماسي والإعلامي، تقليدا وسيرا على ما جري في عقود الحرب الباردة، أم أن حركة التاريخ التناحري ستسود مجددا العالم؟

إننا أصبحنا نعرف اللاعبين الكبارين المحتملين لمرحلة ما بعد الجائحة، ولقيادة الحرب الباردة الثانية المحتملة. لكن الأمر يحتاج منهما إلى مشاركين ومعارضين مؤيدين لهذا الجناح أو ذاك. ويبدو أن بريطانيا ستبقى، لأسباب عرقية وثقافية، واستراتيجية كذلك مؤيدة لأمريكا ظالمة أو مظلومة؛ وقد كان ذلك مسلكها منذ الحرب العالمية الأولى على الأقل. خاصة وأن التوجه الراهن لإنجلترا توجه يميني قومي انعزالي مماثل إلى حد كبير للتوجه الأمريكي. ومن المنتظر أن ينضم اليهما اليمينيون المتطرفون الأوروبيون (القوميون الجدد)؛ وحينئذ ستختار دول الاتحاد الأوروبي "اضطرابا" تموقعها ضمن معسكر أمريكا، خوفا من التنين الأصفر.

أما الصين التي تتغلغل بدون ضجيج كبير في الجهات الأربع للعالم، وتغري الدول باستثماراتها التي تخلق الشغل وتُنمّي الثروة، وتساعد بها مشاريعها العلمية والتكنولوجية المؤدية إلى ارتياد آفاق التقدم والازدهار، فستستطيع بذلك أن تجلب تأييد دول وشعوب كثيرة وفي مقدمها روسيا التي ستشكل معها المعسكر الشرقي الجديد. إنها فرصة لفجر شرق جديد في التاريخ. خاصة وأن الشرق يعيش الآن استعادة زمنه الحضاري الذي طال انتظاره.

¹³ AFP, 13 - 1 - 2013

¹⁴ انظر جريدة اليوم السابع المصرية، عدد 26 مارس 2020.



الخاتمة

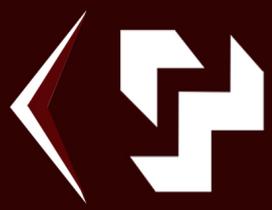
من مسلمات التاريخ العام والسياسي الحركة والتغير، والعالم اليوم يقف، بقوة حتمية الأشياء، على عتبة تجديد توازناته وتوافقاته تجنباً لمزيد من توتر العلاقات الدولية، وتجاوز الإخفاق في إيجاد الحلول الملائمة للأزمات، أو انتظار حدوث مزيد من الانتكاسات في النظام الدولي، فما هي الاحتمالات المستخلصة من هذه المقالة التأملية بشأن احتمالات وأفق النظام الدولي ورهاناته؟

أولاً، أكدت كثير من القرائن والدلائل على أن نظام العولمة لم يقدر على أن يكون بديلاً ناجحاً للنظام العالمي السابق، أو نظاماً مقبولاً لتحقيق التوافقات الضرورية في عالم تتوزعه الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والعلمية والتكنولوجية من هذا الجانب أو ذاك، إضافة إلى انتشار عواطف ومشاعر التفوق القومي واعتبار المصلحة القومية الأسنى والأجدر بأن تسود العالم. وهذا ما يمكن أن تمثله النزعات القومية المنبعثة هنا وهناك، والمتنامية بقوة الدوافع العرقية قبل السياسية.

ثانياً، نلاحظ وجود قابلية ما لاعتبار النظام السياسي القائم على القومية بأنه الأفضل من نظام العولمة، خاصة في أمريكا، وعند الحزب الجمهوري وحلفائه بالذات، وعند حزب المحافظين في بريطانيا، الحليف الثقافي والمرجعي لأمريكا. إضافة إلى الصعود المتنامي للنوازع السياسية القومية في كل أوروبا. وهنا يقفز احتمال عودة الحروب المدمرة التي أخبر تاريخ القوميات والتاريخ الإنساني بها، وما إعلان الرئيس ترامب بأن قدره هيأه ليفعل بالصين ما لم يفعله أسلافه مجتمعين إلا نذيراً باحتمال عودة زمن القوميات. فأى حظ للتوافق ووثام العلاقات الدولية في ظل سياسة التهديد بالويل والثبور؟

ثالثاً، يمكن أن يتم تدارك المخاطر المحدقة بالعالم، بفضل الفاعلين السياسيين العقلاء، والحكماء القادرين على التأثير في مراكز القرار العالمية؛ فيتم التوجه ضرورة إلى البحث عن قيام نظام دولي ثنائي جديد، بمنهجية ثقافية سياسية إنسانية تراكمت عبر مسيرة الإنسانية التاريخية. ويُفتح المجال للتنافس لإظهار قدرات الأمم في إيجاد الحلول لأزمات العالم المستجدة من أجل تطوره وتقدم شعوبه، وتديير العلاقات الدولية بتوافقية أفضل.

ومهما يكن من أمر فإن صورة العالم ستختلف، اختلافاً غير يسير، بعد انفراج أزمة جائحة كورونا الحالية.



مراجع المقالة

أولا، الكتب

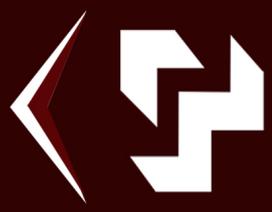
- 1 ألان بيرفيت Alain Peyrefitte، يوم تهض الصين .. يهتز العالم، ترجمة هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت - باريس 1974.
- 2 إيناس سعدي عبد الله، الحرب الباردة دراسو تاريخية للعلاقات الأمريكية السوفياتية، منشورات آشوربانيبال للكتاب، بغداد طبعة 2015.
- 3 توماس فولجي، وآخرون، مستقبل النظام العالمي الجديد، ترجمة عاطف معتمدعزت زيان، المركز القومي للترجمة، القاهرة طبعة 2011.
- 4 دافيد كوامن، العدوى الحيوانية والوباء البشري القادم، ترجمة مؤسسة عالم المعرفة، الكويت 2014.
- 5 روبرت جيه ماكمان، الحرب الباردة، ترجمة محمد خضر، منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2014.
- 6 فرانسواز لوموان، الاقتصاد الصيني، ترجمة صباح ممدوح كعدات، منشورات الهيئة السورية للكتاب، دمشق طبعة 2010.
- 7 نعوم تشومسكي، النظام العالمي القديم والجديد، ترجمة عاطف معتمد عبد الحميد، منشورات نهضة مصر، القاهرة طبعة 2007.
- 8 هنري كيسنجر، النظام العالمي أفكار حول طبيعة الأمم ومسار التاريخ، ترجمة أشرف راضي، منشورات كنوز، القاهرة طبعة 2015.
- 9 يورغ سورسن، إعادة النظر في النظام الدولي الجديد، ترجمة أسامة العزوي، منشورات عالم المعرفة، الكويت عدد 480.

ثانيا: المجالات

- 10 مجلة Nature Medicine الأمريكية، عدد دجنبر 2015، موضوع غلتهابات الجسم الحي وعلاقته بالفيروسات.
- 11 مجلة الأهرام المصرية، عدد يوليو 2019، عدد 293.

ثالثا: الجرائد والمواقع الإلكترونية

- 12 الاقتصادية، جريدة العرب الدولية، عدد 8 مايو 2020.



13 البيان الاقتصادي، عدد 18 يونيو 2020.

14 B B C NEWZ عربي، أكتوبر 2019.

15 B B C NEWZ عربي، 9 نونبر 2019

16 B B C NEWZ عربي 5 مايو 2020

17 أخبار الأمم المتحدة، 5 نونبر 2019.